المحال أن يظفر سالك طريق المشرق بما يوجد في المغرب ، فكذلك يجري أمر الدنيا والآخرة ، ولذلك قال تعالى :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا وَرَضُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱطْمَأَنُّوا۟ بِهَا ﴾ [يونس : ٧] .

وقال تعالى : ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم : ٧] .

وقال عز وجل : ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [النجم : ٢٩-٣٠] .

فالجمع بين كمال الاستبصار في مصالح الدنيا والدين ، لا يكاد يتيسَّر إلا لمن رسَّخه الله لتدبير عباده في معايشهم ومعادهم ، وهم الأنبياء المؤيدون بروح القدس ، المستمدّون من القوة الإلهية ، التي تتسع لجميع الأمور ولا تضيق عنها ، فأما قلوب سائر الخلق ، فإنها إذا استقلَّت بأمر الدنيا انصرفت عن الآخرة ، وقصَّرت عن الاستكمال فيها[1] .

* * *

## الخطبة الأخيرة :

وقف عمر بن عبد العزيز[2] رضي الله عنه فوق المنبر ، وخطب خطبةً لم يخطب بعدها حتى مات رحمه الله تعالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

---

(١) بتصرف من إحياء علوم الدين : ٣/ ١٣١ .

(٢) هو عمر بن عبد العزيز بن الحكم ، أبو حفص ، الخليفة الأموي المشهور ، قيل له خامس الخلفاء الراشدين ، له أخبار عجيبة في العدل وحسن السياسة والزهد والورع . ولد عام ( ٦٦ هـ ) وتوفي عام ( ١٠١ هـ ) دامت خلافته سنتين وبضعة أشهر .

أيها الناس ، إنكم لم تُخلَقوا عبثاً ، ولم تُترَكوا سُدى ، وإن لكم معاداً يحكم الله فيه بينكم ، فخاب وخسر من خرج من رحمة الله التي وسعت كل شيء ، وحُرِمَ الجنة التي عرضها السموات والأرض ، واعلموا أن الأمان غداً لمن خاف ربه ، وباع قليلاً بكثير ، وفانياً بباقٍ ، ألا ترون أنكم في أسلاب الهالكين ، وسيخلفها من بعدكم الباقون ، كذلك حتى تردوا إلى خير الوارثين .

ثم أنتم في كلِّ يوم تشيِّعون غادياً أو رائحاً إلى الله ، قد قضى نحبه وبلغ أجله ، ثم تغيِّبونه في صدعٍ من الأرض ، ثم تودِّعونه في موسَّد ولا ممهَّد ، قد خلع الأسباب ، وفارق الأحباب ، وواجه الحساب ، غنيّاً عمّا ترك ، فقيراً إلى ما قدم .

وايم الله ، إني لا أقول لكم هذه المقالة ، وما أعلم عند أحد منكم من الذنوب أكثر ممّا عندي ، فأستغفر الله لي ولكم .

وما تبلغنا حاجة يتَّسع لها ما عندنا إلا سددناها ، ولا أحد منكم إلا وددت أن يده مع يدي ، ويحمي الذين يلونني حتى يستوي عيشنا وعيشكم .

وايم الله ، أن لو أردتُ غير هذا من عيشٍ أو نضارة ، لكان اللسان منّي ناطقاً ذلولاً عالماً بأسبابه ، لكنه مضى من الله كتاب ناطق وسنَّة عادلة ، دلَّ فيها على طاعته ، ونهى فيها عن معصيته .

ثم بكى عمر وبكى الحاضرون ، وتلقّى دموعه بطرف ردائه ، ثم نزل[1] .

* * *

(١) من البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٦١ .